الفصل السابع

التركيبة العقلية والنفسية للإنسان العربي

الإنسان ـ عمومًا ـ مخلوق ثلاثى الأبعاد والتكوين؛ فهو روح ونفس وجسد؛ وهذه المكونات الثلاث لا تتجزأ فى الكائن الحى إلا بالوفاة. فالروح هو: مصدر الحياة وسره الأزلى الذى لا يعرف الإنسان عنه أى شىء سوى أنه صادر من الله خلق الأجساد ونافخ الروح فيها لتحيا. **المكون الثانى فى الإنسان هو:** النفس **والثالث هو:** الجسد. لنترك الروح وشأنها للخالق الذى أبدعها وأنشأها؛ ولنتكلم عن ماهية النفس الإنسانية عمومًا وعلاقتها بالجسد قبل الخوض فى تحليل التركيبة النفسية للإنسان العربى. إن النفس ومركزها الدماغ؛ والأخير المسيطر على كل فعاليات الجسد النفسية والحركية والسلوكية. ويقول الكاتب صباح إبراهيم: إن النفس هى طبيعة الإنسان وانفعالاتها تجاه الشخص ذاته أو تجاه الآخرين المحيطين به فمن علامات النفس وانفعالاتها هى الفرح، الحزن، الغضب، الانفعال العصبى، الانطواء، الكرم، البخل، الحب، الغضب، الحقد، الانتقام، وغيرها من السمات النفسية للإنسان هذه الانفعالات لادخل للروح ولا للجسد فى خلقها أو تنفيذها؛ بل هى انفعالات داخلية تنعكس عل تصرف الإنسان سلبًا أو إيجابًا. وهى تتأثر بالوراثة العائلية وبالتربية والبيئة التى ينشأ فيها الإنسان منذ طفولته. أما المكون الثالث للإنسان فهو الجسد الذى يتكون من الهيكل العظمى والأنسجة والعضلات والأعضاء المتخصصة كالقلب والرئتين وجهاز الهضم وغيرها؛ إضافة إلى الحواس الخمسة وأعضائها كالعين والأنف واللسان والأذن والجلد. يوجد تناغم وانسجام وترابط تام بين النفس ومركزها الدماغ بكافة أجزائه وأنسجته المتخصصة وبين أعضاء الجسد المختلفة. فالنفس الفرحة المرحة والمنفتحة تمنح صاحبها الصحة والعافية طول العمر، وتزيد من قدرته على مقاومة الأمراض؛ والنفس الحزينة الكئيبة المنطوية تجلب الأمراض النفسية والعضوية على صاحبها. إن الضغط النفسى والعصبى؛ والهموم الحياتية؛ والتوتر النفسى والعصبى والغضب المستمر تقلل وتضعف مناعة الجسم ضد الأمراض؛ حتى يصبح فريسة سهلة للميكروبات

والفيروسات والبكتيريا الضارة، لقد أثبتت أحدث الدراسات الطبية أن تفاقم الحالة النفسية سوءًا يؤدى إلى نشاط الميكروبات والفيروسات بعد فقدان المناعة الذاتية للجسم فتنشط بإفراز سمومها لتفتك بالجسد وأعضائه المختلفة؛ وتعطل عملها الطبيعى؛ فتظهر أعراض الأمراض النفسية أولًا؛ كالكآبة؛ والانطواء والتوتر العصبى؛ وبعد فترة من الزمن؛ إن لم تعالج وتزول مسبباتها؛ تتحول من أمراض نفسية إلى أمراض عضوية تفتك بصحة الجسد فتظهر أعراض جديدة لهذه الأمراض العضوية ويصاب الجسد بأمراض فتاكة مثل ارتفاع ضغط الدم؛ الذبحة الصدرية؛ السكرى؛ قرحات المعدة والإثنى عشر والقولون العصبى؛ والإكزيما الجلدية وداء الصدفية، وغيرها من الكثير من الأمراض العضوية ذات المنشأ النفسى والعصبى، كما تنهار المناعة الذاتية للجسد فيحدث أن تهاجم خلايا المناعة الدفاعية الخلايا والأنسجة السليمة بالجسد وتفتك بها معتقدة أنها أجسام غريبة غازية؛ حيث تفقد القدرة على التعرف عليها وتبدأ بمهاجمتها ومعاملتها كعدو غريب، وهذا ما أطلق عليه العلماء اسم أمراض المناعة الذاتية. خلاصة القول إن الحالة النفسية للإنسان هى المسيطرة والمسئولة عن صحة الإنسان ونشاطه وسلوكه مع الآخرين وهذا ما يهمنا فى المقام الأول عند تحليل التركيبة النفسية للإنسان العربى والإمكانات العقلية المرتبطة بهذه التركيبة.

والآن يحسن بنا، ويحق لنا أن نتناول النفس والعقل العربى بالدراسة والتحليل وأن نعرف العقل مرة أخرى تعريفًا لغويًا واصطلاحيًا حتى يلم القارئ بمفهوم العقل بشكل عام ودلالته المعينة فى هذا الكتاب كما شرحنا النفس الأن باستفاضة. لقد وردت لفظة عقل فى المعجم الوسيط وبعدة تصريفات منها: عاقل؛ عقال؛ عقول؛ وغيرها. ومن المعانى الواردة قولها عقل شيء أى أدرك الأشياء على حقيقتها؛ والعاقل هو الشخص المدرك. وفى معجم «علم النفس والتحليل النفسى» أورد الدكتور فرج طه أن العقل يقصد به الذكاء أو الذهن.

ويستطرد ويقول: فإن قلنا إن فلانًا له عقل ممتاز كنا نقصد بأنه على درجة عالية من الذكاء والفهم؛ وإن قلنا فلانًا ضعيف العقل؛ فإننا نقصد أن ذكاءه قاصر وضعيف؛ وإن قلنا إن فلانًا مريض عقليًا؛ فإننا نقصد أنه مصاب بالجنون أو الذهان؛ ومن مشتقات كلمة العقل التى تناولتها المعاجم؛ كلمة العقلانية.

ويعرفها د. فرج طه بقوله: إنها موقف فكرى وسلوكى تجاه قضايا الحياة الاجتماعية والمعرفة وقضايا العلوم التطبيقية ويتمثل فى اعتبار العقل هو القيمة العليا فى الحياة ومعيار كل شىء ومصدر التوجيه فى الحياة؛ وإننا كأفراد يحكمنا نظام عقلى يقوم على مجموعة من

المبادئ والمسلمات والقوانين الأولية التى تتفق عليها كل العقول السليمة؛ وإن المبادئ تتميز بالسمو والارتفاع فوق الجزيئات وفوق اعتبار الزمان والمكان. لقد سبق أن أكدت أن المقصود بالعقل هو الكيفية فى الأداء والنشاط الذى يبذله الفكر الإنسانى نتيجة ما يتوفر له من معارف؛ ومعلومات ونتيجة مايتكون فيه من مبادئ وقواعد تشكل فى مجموعها المنظومة العقلية للفرد؛ وخلال السياق السابق تم التأكيد على أن بنية العقل وهيئته لاتأتى من فراغ بل هى متأثرة سلبًا وإيجابًا بما يحيط به من ثقافة وحضارة سواء على المستوى المحلى أوالمستوى العالمى.

ولكى نتعرف على واقع العقل العربى وارتباطه بالطبيعة النفسية المصاحبة والمهيئة له؛ يتطلب الأمر أن نحلل ونشرح العوامل المؤثرة فى الحالة النفسية وبالتالى التهيئة العقلية للإنسان العربى؛ فالعقل العربى كغيره من العقول البشرية يصدق عليه ما يصدق عليها؛ فهو يتأثر نفسيًا بما يحيط به من عوامل بيئية وثقافية وحضارية سواء على المستوى المحلى أوالمستوى العالمى. وإذا تأملنا بالدراسة السلوك النفسى للناس فى المجتمع العربى؛ فسوف نجدهم يعيشون فى حالة سكونية؛ حياتهم الاجتماعية تفسخ وتحليل وطبقية جائرة؛ وحياتهم السياسية استبداد وقمع وتلاعب بالسلطة وإزهاق للحريات واعتداء على حق المواطنة والكرامة الآدمية.

فقد كف العقل عن العمل وقامت مقامه الغريزة؛ فالأمة العربية لاتقرأ ولاتكتب؛ ومجموع ما يصدره العالم العربى من كتب وما ينشره من ثقافة لايضاهى دولةأوربية واحدة هى أسبانيا؛ وأما الحياة الدينية فقد لحقها المسخ والتشويه والرياء؛ فهم الناس من الدين طقوسه وأفرغوه من محتواه وتعلقوا برماده على حساب وهجه وإشعاعه؛ فقد غاب الاجتهاد وضعفت الثقة بالنفس إزاء السلف؛ وأعدم الحاضر والمستقبل ليعيش الماضى؛ وأصبح الشارع العربى ممزقًا لخرق بالية من كل لون جمعت إلى بعضها البعض بشكل قسرى وفى عجلة فغدا الأمر مضحكًا لدرجة البكاء؛ لباس أوروبى إلى جانب لباس أفغانى وسفور إلى جانب تزمت حجاب حتى اليدين والعينين؛ وذقون حليقة إلى جانب ذقون مرسلة اللحى ذات أيديولوجيا تستفز وتناور؛ وقصور مترفة جنبًا إلى جنب مع أكواخ معدمة؛ والنزيف يتواصل والثروات الوطنية تستنزف والخبرات العلمية والكفاءات الحقة تواصل نزوحها إلى الغرب هربًا من الكذب والرياء والنهب المقنن. وفى هذا التناقض الصارخ وفى خضم هذه المأساة يعيش الناس فى صراع نفسى رهيب؛ يعيشون بلا هدف ويلهثون وراء اللا شيء؛ وأصبحت الحياة العربية حياة الضرورة أو حياة الغريزة؛ يعيش الناس فى المجتمعات العربية لأجل العيش، وأصبح الكدح ينتهى عند الإبقاء بضرورات العيش من مأكل ومشرب؛ وأصبح الطموح المعنوى ضربًا من الخيال؛

وفى مجتمع كهذا يصبح الإنسان غير مستقر من الناحية النفسية؛ مليء بالإحباطات النفسية يعانى من الاكتئاب المزمن والذى كان كما سبق أن ذكرت يجعله يتأثر نفسيًا ومعنويًا وجسمانيًا بالسلب؛ مما يؤثر أيضًا على صفاء ذهنه وقدرته العقلية على اتخاذ القرارات الحاسمة فى حياته الخاصة والعامة.

إن الصعوبات التى تفرض على الإنسان العربى وعجزه عن تحقيق أهدافه ورغباته؛ من خلال ضغوط معرقلة؛ موجهة إلى تحطيم كرامته وعزتة وكبريائة؛ عوامل أدت إلى شعوره باليأس؛ لدرجة أصبح الإحباط سمة من سمات الإنسان العربى عمومًا. إن طبيعة شخصية الفرد هى التى تحدد مدى حساسيته وقابليتة للتأثر بمختلف الأحداث الاجتماعية والإعلامية والاقتصادية والسياسية؛ وبما يجرى حوله من أحداث.

وهكذا فإن الصعوبات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية؛ والفشل والانهزامات المتكررة للجيوش العربية وفشلها فى حروبها؛ وفشل السياسة على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ أدت إلى تدعيم ظاهرة الإحباط فى المجتمعات العربية والإسلامية.

* بعض عوامل إحباطات الإنسان العربى النفسية

لقد عانى الفرد العربى خلال انحطاطه وتخلفه من عدة أزمات نفسية؛ نتيجة فشل أمته فى تحقيق النمو والتقدم والرخاء؛ وذلك نتيجة الفشل السياسى والاقتصادى. وقد تعزز الشعور النفسى بالإحباط للإنسان العربى نتيجة الفشل العسكرى من خلال الحروب مع إسرائيل؛ واستعمار أراضيه؛ مما دفع بعض المسئولين العرب إلى التعاون مع أعدائهم من مواقف ضعف؛ وبالتالى إلى تقديم التنازل؛ وهو ما أدى بدوره إلى جرح كبرياء الإنسان العربى؛ مما يؤدى به فى النهاية إلى الإحباط النفسى المزمن. والإحباط نوع من أنواع المسببات الرئيسية للاكتئاب النفسى ويعرف بأنه «حالة نفسية لفرد حرم من رضا مشروع؛ ناتج عن خطأ فى التوقعات؛ لا يحدد الإحباط بالمنع ولا بالعائق؛ ولكن بالمعنى الذى تتخذه بعض مواقف شخص معين»: وهكذا فإن الشعور بالغبن وازدواجية المعايير فى تعامل الدول القوية تجاه مختلف الأحداث هى عوامل تغذى وتفرز الإحباط، وقد كان نتيجة الإحباط؛ مجموعة من الانعكاسات النفسية؛ تتمثل أهمها فى خيبة الأمل؛ والشعور بالإهانة؛ وخدش فى الكرامة. وهى عوامل أثرت على معنويات الإنسان العربى وركبته فى المبادرة والعمل، فكما أن النجاح يؤدى إلى تعزيز الرغبة فى العمل من أجل النجاح؛ فإن الفشل يؤدى إلى فقدان الثقة بالنفس وضعف الرغبة فى العمل؛ والعدول عن الأخذ بالأسباب والمبادرة؛ وهذا ما يفسر الكسل العقلى المصاب به الإنسان

العربى فى كثير من الأحيان. وهذا يقودنا إلى الإبحار أكثر فى بعض الأمراض التى تصيب نفسية وعقلية الإنسان العربى، والتى تحول دون تقدمه وإنسانيته ويمكن إجمالها فى النقاط التالية:

١ - العقل العربى ذو بنية ميتافيزيقية

لم يستطع العقل العربى أن يتحرر من ميتافيزيقية على مر العصور؛ فهو يخلط بين الدنيوى والأخروى؛ والمادى والروحى؛ أوعالم الغيب وعالم الشهادة، وإذا كانت الطبيعة التى يحيا فيها الإنسان خاضعة لنواميس قابلة للفهم والإدراك؛ ويمكن ردها فى النهاية إلى صيغ رياضية؛ فإن العقل العربى يرفض فى عناد هذه الحقيقة؛ ويظل يرد قوانين الطبيعة إلى قوى غيبية؛ وهو بذلك يتنكر لواجبه فى كد الذهن واحترام المنهجية السليمة فى البحث وملاحظة ظواهر الطبيعة بحياد وأمانة وفهم آلية عملها ومن ثمة إدراك قوانينها وهذا مايقود حتمًا إلى الانتفاع بذلك الفهم فى اختراع ما ييسر حياتنا ويقوينا على جبروت الطبيعة؛ وبذلك قواها لصالحنا.

حقًا إن الله خلق الكون وهو لم يخلقه سدى ولاتركه للصدفة العمياء بل أسلمه إلى قوانين صارمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهو بذلك يشعرنا أن هذا الكون فقد بنى بإحكام مقنن بإتقان؛ وهذا ما نجده فى نصوص القرآن الكريم؛ ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ ﴾؛ أو قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾. إلخ. غير أن العقل العربى لايتحرر من سلطة النص؛ فهو ينظر إلى الطبيعة وإلى ظواهرها لمطابقتها مع النصوص القرآنية؛ اطمئنانا على سلامة النص وصدق مضمونه؛ وبالطبع فإن هذه الطريقة فى الفكر ليس بالفكر العلمى ولا بالتفكير الحر؛ إنما هو استمرار لتفكير العصور الوسطى؛ وإصرار على تعويم العقل فى أجواء الميتافيزيقا؛ وهى حلقة مفرغة وتجعل خط سير التاريخ بالنسبة إلينا خطًا دائريًا مغلقًا ينتهى حيث يبدأ.

ومما زاد الطين بلة ظهور فئة من الكتَّاب متخصصة فيما يسمى بالإعجاز العلمى فى القرآن تكتب الكتب وتلقى المحاضرات وتعقد الندوات وتقارن بين نظريات العلم ونصوص القرآن؛ وتؤكد مطابقة تلك الاكتشافات لآيات القرآن؛ وهكذا نجد عند هؤلاء الباحثين يقينًا أن القرآن يحتوى على نظرية النسبية ونظرية الكم؛ وعلم الذرة وعلم الزلازل والبراكين؛ والكيمياء والبيولوجيا والفلك؛ إلخ.. ومما يؤسف له أعمق الأسف أن هؤلاء الباحثين يسمون ما يقومون به علمًا محضًا وفكرًا علميًا رشيدًا ولكن لا يجيب هؤلاء العلماء عن سؤال مهم ماذا أضافت إلينا هذه العلوم الجديدة (علوم الإعجاز) إلينا؟ ولن نجيب على هذه الأسئلة لأنها تحصيل حاصل، وهذا ما يؤكد زيف هذا النوع من التفكير وعرقلته للفكر العلمي الصحيح

وإصراره على تعطيل العقل وشله، وقد أصبغ العقل الميتافيزيقي خاصتيه هذه على الماضي والحاضر ودمج العقل الميتافيزيقي بين كلام الله وكلام المفسرين من البشر، فتقدس كلاهما وتقدس الماضي، وأدى هذا إلى تكون سياج غيبي ضرب حول العقل والوجدان العربيين، فحال دون التجديد والخلق والإبداع، وجعلنا في النهاية أمة الأقوال لا أمة الأفعال، وأصبحت السمة الظاهرة للإنسان العربي هو أنه إنسان يعيش بعقله ونفسه في الماضي أغلب أوقات حياته وليس في الحاضر والمستقبل، بل أصبح مقلدًا غير مبدع.

وقد انتبه الحكام العرب المستبدون إلى خاصية العقل العربي هذه، فوظفوها لصالحهم. فالحاكم هو خليفة الله وظله في الأرض. ووجه الخطر في هذا هو الدمج بين المظمون الديني والسياسي، فاختلط الحابل بالنابل وأصبحنا لا نفرق بين ما هو ديني وما هو علمى وما هو سياسي والفصل بينهم هو البداية الصحيحة والمنطق السليم.

٢ ـ العقل العربى ذو بنية فراغية

يجب أن نلفت الانتباه إلى أن العقل ليس شيئًا ثابتًا جاهزًا للوهلة الأولى؛ بل إن العقل متطور؛ وهو يرتكز على إنجازات عقول تاريخية؛ وهذا يقودنا حتمًا إلى القول بتاريخية العقل والشىء الثابت فى العقل الإنسانى هو تلك البديهيات التى تقوم عليها العلوم والرياضيات كالكل أكبر من الجزء؛ وهى مفاهيم ثابتة فى العقل الإنسانى على اختلاف الزمان والمكان؛ بعيدة عن التحريف والتبديل؛ واحدة عن كل إنسان مهما كان لونه ولسانه وجنسه.

أما القول بتاريخية العقل فهو أمر لابد منه؛ ويكفى إثباتًا لذلك ضرب هذا المثل من تاريخ العلم ذاته؛ فإن آيشتين العالم الشهير بعقله الفذ وتفكيره العلمى، قد أنهى القول بنسبية الزمان والمكان فى نظرية النسبية العامة؛ وإلى القول بتحول المادة إلى طاقة فى نسبيته الخاصة؛ وهى مفاهيم علمية جديدة خلاقة وثورية.

إن عقل هذا العالم الفذ ما كان ليصل إلى هذه الأفكار العلمية الجديدة والتى تعتبر من مسلمات العلم الحديث لولا الاستنارة بتجارب جاليليو ونيوتن فى تطورها التاريخ من عصر مابعد النهضة إلى نهاية القرن التاسع عشر.

وهكذا فالعقل الغربى هو عقل ذو بنية متصلة ينظر إلى حقائق الطبيعة، ويتعامل مع معطيات الحياة والواقع وفق هذا المنظور المتطور المستند إلى إنجازات العقول السابقة؛ أما العقل العربى فهو عقل أشبه بمجموعة من الجزر لا أثر للتاريخية فيه؛ مفاهيم حديثة مع خليط من المفاهيم

القديمة الدينية واللاعلمية والمتناقضة والعجائبية والأسطورية؛ وكأن هذا العقل تسرطنت مفاهيمه فتحولت إلى مفاهيم سرطانية تنهش بعضها البعض؛ وهذا يقود إلى الاستنتاج بعدم منهجية العقل العربى وزيف معظم مفاهيمه؛ وقد انتهى هذا كله إلى الفقر الفكرى؛ فلم نضف جديدًا إلى العلم؛ وفى تاريخنا العلمى من الإنجازات الحضارية والاكتشافات العلمية ماكان ينفعنا إلى وصل هذه الحلقة بإنجازاتنا نحن؛ لرأب الصدع وملأ هذا الفراغ الفكرى؛ ووصل النقاط ببعضها البعض ليتشكل الخط ويسير التاريخ ممتدًّا نحو الأفق وفق خط مستقيم؛ بدلًا من أن يلف حول نفسه وليعود إلى المنطلق وفق دائرة. تجدر الإشارة إلى أن العقل الإسلامى فى عصره الزاهر وبالرغم من العراقيل الدينية كسلطة الفقهاء وهيمنة فكر النقل النصي المتزمت، وتزييف المتصوفة، وبالرغم من العوائق السياسية المتمثلة في قهر الفكر وإلجام روح الإبداع والابتكار بتعاون وثيق بين الحاكم والفقيه وفق قاعدة تقسيم الربح وتبادل المنافع، أقول رغم كل هذه العراقيل، فقد أضاف العقل المسلم إضافات رائعة إلى العقل الإنساني ككل ولم يكتف باستهلاك ثقافة الهند أو الفرس أو الروم واليونان، ولنا في إنجازات ابن الهيثم والبيروني وابن سينا والرازي والخوارزمي والجاحظ والتوحيدي وابن رشد وابن خلدون، خير دليل على صحة ما نذهب إليه من رأي، غير أن مبادرة وصل هذه المحطات الحضارية بعضها ببعض قد انتقلت إلى الغربيين بدلنا، وقد أخذ زمام المبادرة كوبرنيكوس، كبلر، جاليليو، نيوتن، بيكون، فولتير وغيرهم. أما نحن فقد انكفأنا على أنفسنا وتحولنا إلى كائنات غير مفكرة وغير منتجة تعيش على استهلاك أفكار الغير، مغمضين أعيننا عن نور شمس المعرفة، حارمة خلايانا من التجدد في رحاب الطبيعة والزمان.

٣ ـ العقل العربي عقل متناقض

إن العقل العربي يتميز بالتناقض وهدم نفسه بنفسه من خلال إثبات الفكرة ونفيها في ذات الوقت بشكل يدعو إلى العجب والدهشة، بل إنه ليرفض أحيانًا الحقيقة حتى البديهيات ويقبل بالخرافات ناهيك عن حقائق العلم ووقائع التاريخ، حتى أنه يوجد بعض من كتَّابنا الأجلاء تحدثوا ذات مرة محللين أسباب حدوث الزلازل وبعض الفيضانات في الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا وبعض البلاد الأخرى الغربية بأنه عقوبة إلهية جزاء عادلًا لعلمانيتها وتفسخها وتحللها الأخلاقي، وماذا سيكون رد هؤلاء الكتَّاب العظام لو ذكرناهم بتحللنا نحن وطبقيتنا الجائرة وميوعتنا الأخلاقية، ألا نستحق زلازل عديدة عقوبة لنا؟

إن ميزة التناقض هذه قد جعلت العقل العربي يؤمن بالفكرة وبنقيضها في الوقت ذاته، فهو يؤمن بفكرة علمية ثبتت صحتها وقامت الأدلة العقلية أو التجريبية تؤكد سلامتها ثم ينقضها بفكرة سحرية أو أسطورية لا معقولة تهدم العقل من أساسه وتنقض أسسه وركائزه. والمحزن أننا ـ كثيرًا ـ ما نستمع إلى الكثير من علمائنا الأفاضل في محاضراتهم ومقالاتهم ومؤلفاتهم يتحدثون في بدايات حياتهم الفكرية والعلمية عن فائدة التعقل ويشيدون بالفكر العلمي، ويمدحون التقدم العلمي الحاصل في الغرب، ويؤكدون أن ذلك ثمرة المرحلة الوضعية التى جنتها أوروبا ناضجة وسهلة الهضم؛ جزاء العقلانية والممارسة العلمية الواعية؛ ثم ينقلب هؤلاء العلماء والمفكرون فى نهاية عمرهم دراويش أو متصوفين؛ ينحو باللائمة على أوروبا؛ ويندون بماديتها الصارخة؛ ويتحمسون للروحانيات؛ ويؤثرون روحانيتنا على ماديتهم؛ ويحمدون الله أن عصمت من هذا المد المادى الصارخ؛ ولا تفسير لهذة الردة فى أراذل العمر التى تشبه توبة الفنانين والفنانات إلا التسليم بأن ذلك مرده إلى الخوف اللاشعورى من الموت وعالمه الجديد المحجوب عن أبصارنا؛ البعيد عن مداركنا؛ وفى وعينا ولاوعينا ترسبيات لأشكال العذاب والرعب والقمع والعقاب المتجلية فى النصوص الدينية؛ والتى تصيب الإنسان فى آخر عمره بالنكوص والتردد والقلق والخوف الغريزى، ويكون المخرج من هذا المأزق الوجودى والمعادل الموضوعى هو الردة والتنكر للمسار الفكرى الشخصى ضمانًا للإفلات من العقاب والعذاب الإلهى.

٤ ـ الضمور الجزئى للعقل العربى

التحول بتعطيل العقل هو أمر لا مفر منه؛ لقد ضمر العقل العربى فى الأغلب بتعطيل نشاطيه الرئيسيين المتمثلين فى التحليل والتركيب؛ واكتفى الإنسان العربى عندنا بالتقليد والتسليم حينًا واللا مبالاة أحيانًا أخرى. وإذا تأملنا فى سبب ذلك السلوك العقلى المتعطل؛ فسوف نجد أن هيمنة الاتجاه الدينى التاريخى أو ما يسمى بالاتجاه الغزالى على حساب الرشدية (نسبة لأبى حامد الغزالى وابن رشد). لقد صارت هذه العبارات «من تمنطق فقد تزندق» و«إلجام العوام عن علم الكلام» أقول لقد صارت هذه العبارات أشبه بمسلّمات أو قوانين جاليليو فى الحركة؛ يسمعها الواحد منا فتنزل بردًا وسلامًا على قلبه، ويتولى الشكل المقنع لهذه العبارات مهمته فى شكل العقل وإبهار الذات وتخدير الفكر.

وإذا كان العقل العربى فى حالة تعطل وبشكل تام، وقصور عن أداء مهامه. ففى تاريخنا سوابق عديدة من ذلك، إذ كلما هبت مجموعة من المفكرين الأحرار، تفكر فى الحرية وإبداع.

هب التيار المحافظ التقليدى متمثلًا فى فقهاء السلطة وبطانة السلطان وحاشيته لإلجام الفكر الحر وقمعه حفاظًا على المال أو السلطة، وما أكثر من ظلموا فى التاريخ العربى الإسلامى من جراء ذلك الظلم والجهل البين مثل: ابن عربي وابن حزم والمعري وابن الراوندي والتوحيدي، حتى أن آخر ثلاثة قد سموا في التاريخ الإسلامي بزنادقة الإسلام. ولنأخذ أبي حيان التوحيدي كمثل، فكل من عرف وقرأ للتوحيدي ونزعته الإنسانية وأخلاقه المثالية كما تجلت في روائع كتبه «الإمتاع والمؤانسة» و«المقابسات» و«مثالب الوزيرية» وهو صاحب الكلمات المؤثرة الجامعة والتي تلخص مأساة الإنسان منذ بدء التاريخ حتى الآن. فكيف يُرمى مفكر في قدر هذا الرجل بهذه التهمة الجاهزة لأي مفكر حر وهى الإلحاد والزندقة والكفر.

ومن مآسي العصر الحديث ما لا يحصى ولا يعد من النكبات التي تؤكد شلل العقل واستمرار فلسفة الزيف والجهل، فمثلًا «توفيق الحكيم» واجه معارضة شديدة ممثلة في الشيخ الشعراوي يوم شرع في كتابة مقالاته المعنونة «حديث مع الله» واضطر تحت وطأة التنديد أن يغيره إلى «حديث إلى الله». كما أن الشيخ الغزالي مثلًا قال عن نجيب محفوظ إنه كاتب «التنين الاجتماعي» وعن عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أنه «أعمى البصر والبصيرة»، واتهم زكى نجيب محمود بالكفر، وهكذا محمد أركون وفؤاد زكريا، وندد بكتاب «دليل المسلم الحزين: «لحسين أحمد آمين، «وكتاب القصص الفني في القرآن» لمحمد خلف الله، وقتل حسين مروة صاحب «النزعات المادية في الإسلام»، كما قتل فرج فودة، وحكمت المحكمة المصرية على المرحوم الكاتب دكتور نصر حامد أبو زيد بتطليق زوجته لأنه مرتد أو مارق لولا أن لاذ بجامعة «ليرن» في هولندا هربًا من القمع والتدخل في الشئون الشخصية والحيلولة بين المرء وما يعتقده.

إن كل هذه الأمثلة تؤكد استمرار المأساة التي أوضحها في هذا الكتاب، هذه المأساة التي بدأت منذ العصر الأموي مرورًا بالعباسى وعصر الضعف وانتهاء بالعصر الحديث الذي امتلأ بالقنوات الفضائية المشبوهة الممولة خليجيًا، والتي تتولى عملية التخدير الفكري والتغييب وإلجام الفكر خاصة وأن قنواتها في كل بيت عربي، يشاهدها الملايين ممن لا يحسنون تفكيرًا حرًا ولا استدلالًا عقليًا، وفي لا وعيهم جميعًا ترسبات للخوف إلى درجة الرعب وكبت لا تقوى على حمله أي نفس بشرية. إن هذه البنية العقلية للإنسان العربي تجعل المجتمع العربي من محيطه إلى خليجه في حالة كمون وتعطل، لم يقو الزمن على خلخلته وتنشيطه ليتفاعل داخليًا ليشكل عوالم جديدة باعثة للنور الفكري العقلي الذي نأمل في حدوثه من خلال حملة التنوير والنهضة التي نحاول أن نقوم بها كمفكرين وباحثين ننتمي لهذا المجتمع.